صفحات من تاريخ العلاقات الفرنسية مع البصرة في العصر الحديث

أ. د. محمد عبد الله العزاوي

جامعة البصرة - كلية الآداب

قسم التاريخ

عرفت الدول الأوربية البصرة للمرة الأولى خلال النصف الأول من القرن السابع عشر . فقد نقل البرتغاليون نشاطهم التجاري وحماستهم للتبشير إلى البصرة بعد سقوط جزيرة هرمز عام ١٦٢٢ م وأقاموا وكاله تجارية فيها (١) .وكان البرتغاليون قد تعهدوا بحماية البصرة من الغزو الفارسي عام ١٦٢٤ م اعتقاداً منهم بأن استيلاء الفرس على البصرة سيؤدي إلى إفلاس التجارة البرتغالية في الخليج العربي إفلاسا تاماً لصالح منافسيهم التجار الإنجليز (٢) .وقد حاولت شركة الهند الشرقية الإنجليزية جعل البصرة من ضمن أسواقها في محاولة منها للتخفيف من المنافسة الهولندية التي كانت قوية في ميناء بندر عباس خلال معظم القرن السابع عشر (٣) ، وعلية فقد أرسلت عام ١٦٣٥ م أولى سفنها التجارية بحمولة صغيرة (٤) . وقد استمرت التجارة الإنجليزية مع البصرة الأمر الذي شجع الشركة لأن تتخذ قرارا عام ١٦٤٥ بنقل جميع ممتلكاتها من بند عباس إلى البصرة لتجنب المنافسة الهولندية والابتعاد عن مشاكل النزاع التي كانت قد حدثت بين الهولنديين والفرس (٥) . أما الهولنديون فقد ظهروا في البصرة بعد أن عرفوا أن للأوربيين الآخرين تجارة رائجة هناك فاسرعوا إلى إرسال أسطول مكون من ثماني سفن إلى البصرة وأنزلوا حمولة من مختلف أنواع البضائع في منطقة المناوي . وكان للامتيازات والتسهيلات التي منحها أقرأصحاب للهولنديين الأثر الكبير في تقوية نفوذهم إلى درجة أن شركة الهند الشرقية الإنجليزية دعت إلى إيقاف نشاطها في البصرة عام ١٦٥٧ م تاركة الساحة التجارية مفتوحة أمام الهولنديين (٦) .

أما علاقات فرنسا مع البصرة فانها تعود إلى عام ١٦٢٣ م عندما أصبحت الإرساليات التبشيرية الكرملية التي تعيش في ميناء البصرة تتمتع بحماية الحكومة الفرنسية (٧) .

ويذكر دي لافال (della valle) الذي زار البصرة عام ١٦٢٤ م ((انه بعد أن أنهى الآباء الكرمليون بناء كنيستهم في ١٣ نيسان (أبريل) حضر باشا البصرة بنفسه إليها في اليوم التالي لزيادتها)) (٨) .

وفي عام ١٩٢٧ وصل الرحاله الفرنسي (A. Carre) إلى البصرة حيث نزل ضيفاً على الكراملة (٩) . ويذكر لوريمر (J.G. Lorimer) أنه كانت للفرنسيين تجارة محدودة في المنسوجات بالبصرة في عشرينات القرن السابع عشر (١٠) .

وفي ٤ حزيران (يونيو) ١٦٢٨ م عين الأب برناردست توريز (Bernard Dest Terrez) من قبل البابا اربان الثامن (Urbain Vlll) كاول اسقف في مدينة بابل وهو من الكراملة الفرنسين (١١) ، لتقديم المساعدات إلى المسيحيين (١٢) . وفي هذا العام أيضاً وصل الرحالة الفرنسي الشهير جان باتيست تافرنيه (Jean Babtiste Tavernier) إلى البصرة حيث أقام لمدة ثلاثة أسابيع في دار الكرمليين استطاع خلالها أن يحصل بواسطة أحد سفراء المغول على كتاب أمان من السلطان العثماني مراد الرابع يضمن للبعثة الكرملية في البصرة سلامة بيوتها وكنائسها في حالة استيلائه على البصرة . ولكن الكراملة لم يحتاجوا إلية لأن الأتراك لم يقوموا باية محاولة للاستيلاء عليها (١٣) . وقد تحدث تافرنييه عن تجارة البصرة قائلاً ((ويجلب الهولنديون إلى البصرة التوابل كل سنة ، ويحمل إليها الإنجليز الفلفل والقرنفل ، وأما البرتغاليون فلا تجارة لهم معها ، ويجلب إليها الهنود النسيج والنيلة ، وان في البصرة تجاراً من مختلف البلدان يقصدونها لشراء البضائع التي ترد إليها من جزر الهند الشرقية)) ، وحدد الرسوم الكمركية المفروضة على البضائع بـ ٥ ٪ (١٤) .

وفي عام ١٦٥٢ م قام الرحالة الفرنسي فيليب (R.P. Phillipe) بزيارة البصرة حيث ذكر أن لها تجارة نشطة مع الهند (١٥) . ويذكر الأبوان الكرمليان الإيطاليان فنشنوسباستياني اللذان زارا البصرة في عام ١٦٥٦ م أن أميرها حسين باشا آل افراسياب كان ينظر نظرة ود واحترام إلى الآباء الكرمليين ويلبي طلباتهم ويعاملهم كاصدقاء له (١٦).

ويؤكد نيبود ذلك إذ أكد أن حسين باشا منح حرية واسعة للمسيحيين واجتذب كثيراً منهم للاستقرار في المدينة وبذلك ارتفع مستوى التجارة (١٧) .

وقد شهدت البصرة نوعاً من الاستقرار السياسي والاقتصادي بفضل حكومة آل افراسياب وترحيبها بالتجار الأجانب الذين شجعهم سيادة الأمن والحرية في البصرة على زيادة تجارتها معها (١٨) .

وقد وصف الرحالة البرتغالي غودينهو (M. Godinho) سوق البصرة في عام ١٦٦٣ م بانه أعظم سوق تجاري في هذه البحار (١٩) .

وفي عام ١٦٦٤ م قام الرحالة الفرنسي كاريه بزيارة البصرة للقيام بمهمة استطلاعية لحساب شركة الهند الشرقية الفرنسية وملاحظة أعمال الشركة فيها (٢٠) .

وعندما استقر الفرنسيون في سورات عام ١٦٦٨ م كان همهم التجارة مع الخليج العربي على غرار الإنجليز والهولنديين ، حيث قامت شركة الهند الشرقية الفرنسية (٢١) في العام التالي بإرسال أول سفينة فرنسية من الفلفل والنيلة إلى البصرة . وقد تمكن فروتر (Frotter) مبعوث الشركة من تحقيق أرباح كبيرة واستطاع أن يحصل من حاكم البصرة على الامتيازات الممنوحة للإنجليز والهولنديين نفسها (٢٢) . وفي عام ١٦٧٤ م أصدر لويس الرابع عشر (١٦٤٣ ـ ١٧١٥) قراراً بتعيين رئيس البعثة التبشيرية الكرملية بتي دي لاكروا (Petit dela croix) قنصلاً فرنسياً في هذه المدينة مدى الحياة . وبناء على هذا القرار قام أحد عشر أباً من الكراملية بواجبات القنصل في البصرة في الفترة ١٦٧٤ـ١٧٣٩ (٢٣) .

وكان أحد الأهداف الرئيسية بتعين رجال الدين قناصل في البصرة هو لحماية الطائفة الكرملية من ملاحقة السلطات العثمانية وجعلها في مامن من الدسائس والمتغيرات السياسية التي تحصل في البصرة ، فضلاً عن عملهم في تطوير المصالح التجارية الفرنسية في هذا الميناء (٢٤) .

وفي بداية عام ١٦٧٩ م اشتكى الكراملة بان متسلم البصرة كان يصد على دفع الرسوم الكمركية بأكثر من المقرر في الامتيازات الممنوحة إلى الفرنسيين (٢٥) . وبناء على ذلك حصل دومينوس ماركيزدي نوانتل (Dominus Marquis de Nointel) السفير الفرنسي في اسطنبول بعد جهود لدى الباب العالي على أمر رسمي من السلطات محمد الرابع (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧) تضمن الحماية الكاملة للكراملة الفرنسيين في البصرة ، فضلاً عن الأمان الكامل لممارسة طقوسهم الدينية وتعاليمهم المسيحية والسماح لهم بمزالة التجارة دون مضايقة في كل الأرجاء الواقعة تحت سيطرة العثمانية ، وعدم مطالبتهم بالرسوم الكمركية غير العادلة (٢٦) .

وفي ٢١ آب (أغسطس) ١٦٨٢ م وصلت أحدى السفن التجارية التابعة لشركة الهند الشرقية الفرنسية المسماة لوفوتور كورونيه (Levautour Coronne) إلى البصرة وكان على ظهرها (٦٠) شخصاً من الفرنسيين (٢٧) .

أن الموقع الجغرافي الذي تتمتع به البصرة وعلاقاتها التجارية مع الهند وفارس ومسقط والقسطنطينية وسوريا ، والسفن التي تصلها من أوربا وآسيا (٢٨) ، واحتلال الأفغان لفارس (١٧٢٢ ـ ١٧٢٩) وتوقف التجارة معها ، دفع شركة الهند الشرقية الفرنسية إلى زيادة اهتمامها بالبصرة (٢٩) . ففي كانون الأول (ديسمبر) ١٧٢٢ م وصلت أحدى السفن الهندية المستأجرة لحساب شركة الهند

الشرقية الفرنسية وعليها التاجر الفرنسي بايتست مارتان (Baptist Martin) مع حمولة تقدر بـ (٦٠) ألف روبية إلى ميناء البصرة . وكان من المقرر أن تحمل عند عودتها من البصرة الخيول إلى ميناء بندر ريق . وقد اختلف الكابتن راكوز (Ragouz) ربان السفينة والأب بول (P .Paul) رئيس المبشرين مع موظفي الكمارك حول مسالة العوائد الكمركية ، ففي الوقت الذي أمر فيه الفرنسيون على دفع رسم كمركي قدره ٣ ٪ على الأنسجة الصوفية و٥ ٪ على البضائع الأخرى . فقد أكدت سلطات الميناء على ضرورة دفع ٥ ٪ على جميع البضائع ، وهي الضريبة التي كان يدفعها الإنجليز (٣٠) .

وفي ١٥ شباط (فبراير) ١٧٢٣ م حصل الأب بول على أمر من أحمد باشا يقضي بأن تدفع شركة الهند الشرقية الفرنسية رسماً كمركياً قدره ٣ ٪ على المنسوجات و ٤ ٪ على البضائع الخاضعة للوزن (٣١) . ولكن ظلت مسالة مقدار الضريبة التي يدفعها الفرنسيون في البصرة دون حل ، على الرغم من حصول السفير الفرنسي في اسطنبول على فرمان جديد من السلطات العثمانية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٢٩ يحدد مقدار الرسوم الكمركية على الفرنسيين بـ ٣ ٪ من قيمة البضاعة (٣٢) . وكان لهذا الفرمان أهمية قليلة بالنسبة للفرنسيين في البصرة لأن حكام هذه المدينة كانوا لا يلتزمون تماماً بالفرمانات التي يصدرها السلطان العثماني .

وقد استمر الآباء الكرمليون يشرفون على تجارة شركة الهند الشرقية الفرنسية حتى عام ١٧٢٨ م عندما قامت الشركة بتعيين رينو (Regnault) وكيلاً لها في البصرة للاشراف على بيع وشراء البضائع والعناية بمصالح الشركة . وقد شهدت الوكالة خلال الفترة (١٧٣٠ ـ ١٧٣٤) نزاعاً حاداً مع رئيس البعثة الكرملية بخصوص الأحقية في ممارسة الاعمال التجارية ، الامر الذي دفع مجلس الشركة في بوندشيري لأن يطلب من دي فيلونوف (de Villeneuve) السفير الفرنسي لدى الباب العالي التدخل لوضع حد لهذا النزاع ، وذلك عن طريق انتزاع الوظائف القنصلية من الكراملة أو تحديد واجبا تهم التجارية (٣٣) .

ولهذا طلب دي فيلونوف من الأب بلاسيد (P. Placide) رئيس المبشرين عدم التدخل بالشؤون التجارية في البصرة (٣٤) . كما اقترح مجلس الشركة في بوند شيري على مجلس الشركة في فرنسا أقامة قنصلية فرنسية في البصرة لم يكن لها علاقة بالمبشرين الذين كانوا يشكلون هيئة القنصلية في البصرة (٣٥) . وقد وافق الملك لويس الخامس عشر (١٧١٥ ـ ١٧٧٤) على مقترح الشركة وطلب الوزير دي موربا (de Maurpas) من السفير الفرنسي في اسطنبول بذل جهوده من اجل الحصول على البراءة القنصلية (٣٦) . وكان على القنصل الفرنسي في البصرة بموجب اقتراح الشركة أن يكون على اتصال وثيق بمجلس الشركة في بوند شيري والسفير الفرنسي في اسطنبول والقنصل الفرنسي في حلب ، وان

يقوم بتحديد البضائع التي تحضي باهتمام التجار ، وان يقوم بإرسال النقود الفضية إلى بوند شيري وشاندرناكور بغية تبديلها بروبيات في الهند ، وأن يشرف على الطريق البري لنقل البريد ، وأن يرتبط بعلاقات وثيقة مع البعثات التبشيرية . وقد حدد راتب القنصل بـ (١٥٠٠) ليرة مع تخصيص نسبة ٢ ٪ من البضائع المباعة كحقوق قنصلية (٣٧) .

وفي ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٧٣٧ اختير ميران (Miran) ، أحد العاملين بالشركة في بوندشيري ، قنصلاً لفرنسا في البصرة لكنه رفض هذا المنصب ، الأمر الذي دفع مجلس الشركة إلى تعيين بييردي مارتنفيل (Pierre de Martinville) ، المستشار في مجلس الشركة بدلاً عنه (٣٨) . ولكن انشغال الشركة في مسالة وضع يدها على إقليم كاريكال قد أخر سفر مارتنفيل لاستلام مهمته الجديدة (٣٩) .

وفي ٢٧ حزيران (يونيو) ١٧٣٩ م وصل مارتنفيل مع (٤٠٠) بالة من القهوة البوربونية على ظهر السفينة ايرو (Heureux) إلى البصرة و برفقة المساعد دي لارش (de Larche) (٤٠) .

وفي ١٠ تموز (يوليو) كتب مارتنفيل إلى أحمد باشا (١٧٢٣ - ١٧٤٧) يرجوه السماح له بممارسة مهامه . وفي نهاية تموز (يوليو) وعلى الرغم من مؤامرات الإنجليز والهولنديين أصدر باشا بغداد أوامره .

بالاعتراف بمارتنفيل قنصلاً لفرنسا في البصرة وحقه في رفع العلم الفرنسي على دار القنصلية ، وأن يعامل كما يعامل بقية القناصل الفرنسيون في موانىء الشرق ، وأن يكون له حق الأفضلية على قناصل بريطانيا وهولندا المقيمين في البصرة (٤١) . وقد تلقى الفرنسيون التشجيع كله والحماية من أحمد باشا . وكان مارتنفيل يعتمد على دعمه كلما سعت السلطات المحلية في البصرة الى اضطهاده والتجاوز على حقوقه . ففي تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٣٩ إشتكى مارتنفيل بأن متسلم البصرة يصر للحصول على مزيد من القروض والهدايا ، ولذلك فقد أمر باشا بغداد بوجوب احترام القنصل الفرنسي وحماية التجارة الفرنسية . وكان الباعث لموقف الباشا هذا تجاه الفرنسيين هو إدراكه العميق لأهمية التجارة الفرنسية بالنسبة الى البصرة ، فقد كانت التجارة والرسوم الكمركية العائدة منها تشكل المصدر الرئيسي لدخل المدينة (٤٢) .

وقد كانت وكالة بندر عباس تحت أشراف مارتنفيل وتاتي بالمرتبة الثانية بعد البصرة من حيث الأهمية بالنسبة للتجارة الفرنسية (٤٣) .

وكانت للبصرة أهمية أخرى بالنسبة للفرنسيين فهي المكان الذي ترسل عن طريقه الرسائل وغيرها من الهند إلى أوربا وبالعكس (٤٤) . ولم يكن الفرنسيون هم الأوربيون الوحيدون ممثلين في البصرة فقد كان

للإنجليز مقيم في المدينة لمعظم النصف الأول من القرن الثامن عشر (٤٥) . وكانت علاقة مارتنفيل طيبة مع قناصل بريطانيا وهولندا وكانوا يتفقون سوية على التعهد بالنفقات المشتركة على البريد الذي يذهب من البصرة إلى حلب ، خاصة أن إخبار فرنسا تصل عن هذا الطريق . وكان على مارتنفيل تزويد مقر الشركة في فرنسا بالأخبار والمعلومات المتعلقة بالهند والشرق (٤٦) .

ولم تزدهر تجارة البصرة في أيما وقت كما ازدهرت في عهد هذا القنصل ، فقد استطاع مارتنفيل بعد وصوله إلى البصرة من تنظيم مبيعات الشركة ، واسترداد الديون الكبيرة لدى بعض تجار البصرة ، وانتهاج سياسة البيع نقداً . وباقل من شهرين استطاع مارتنفيل إن يبيع (٢٠٠) بالة من القهوة البوربونية . ولما كانت قهوة اليمن هي المفضلة في البصرة بسبب نوعيتها الجيدة وطريقة تعبئتها ، فقد طلب مارتنفيل من الشركة الاهتمام بتعبئة القهوة البوربونية ، قائلاً :

" وبهذه الطريقة سيكون في مقدوري إن أبيع (٣٠٠) بالة من القهوة البوربونية وبأفضل الأسعار " (٤٧) .

أما بخصوص الأقمشة الفرنسية التي كانت تأتي من الهند والبنغال وساحل كوروماندل إلى البصرة ، فقد أكد مارتنفيل أن النوعيات المستوردة منها لا تلبي الرغبات والحاجات الشعبية ، واقترح على الشركة ضرورة إرسال الأقمشة التي تتلائم مع حاجات التجارة المحلية ولما كان الحديد هو المادة الثالثة للاستيراد ، فقد ذكر للشركة إن الحديد المربع لا يباع الابصعوبة كبيرة ، وطالب بضرورة إرسال الحديد المسطح الذي يباع بأسعار عالية (٤٨) .

وعلى الرغم من أن هيئة القنصلية الفرنسية في البصرة كانت تتألف من القنصل مارتنفيل والمساعد دي لارش والمترجم اوتر (J. Otter) وستة من الخدم ، فقد ادار مارتنفيل الأعمال التجارية بنجاح كبير حيث شهدت البصرة زيادة كبيرة في التجارة الفرنسية نتيجة لجهوده وعلاقاته الطيبة مع باشا بغداد . وقد وصلت البصرة خلال فترة قنصليته (حزيران ١٧٣٩ – تشرين الثاني ١٧٤١) ستة سفن فرنسية تحمل القهوة البوربونية والأقمشة والحديد والسكر والهيل والزنجبيل والزعفران والرصاص والخشب والقرفة والفلفل والنيلة والأشرطة الذهبية والفوانيس والشمعدانات .

ويمكن اعتبار فترة قنصلية مارتنفيل من أكثر الفقرات ازدهاراً بالنسبة للتجارة الفرنسية مع البصرة ، فقد تجاوزت مبيعات الشركة من القهوة وحدها أكثر من (٣٠٠٠) بالة (٤٩) .

وفي ٦ أيلول (سبتمبر) وبسبب الحالة الصحية المتردية لمارتنفيل ، كتب إلى مجلس مديري الشركة في باريس ، يقول " إن الثقة التي اناطتني بها الشركة لتحمل مسؤولية البصرة منعتني إن اعرض عليكم الحالة المتردية لصحتي في البصرة ، ومنذ سنتين لم تتحسن حالتي والتي اعتقد إنها تحتاج إلى وقت طويل لكي أكون بخير ، وان هذا هو السبب الذي دفعني لكي التمس منكم الموافقة على نقلي إلى قنصلية

ماهي " (٥٠) . وأكد إن قنصلية البصرة قد أصبحت قوية وان إعمال الفرنسيين التجارية تسير بشكل جيد (٥١) . ولكن مجلس مديري الشركة لم يستجيب لطلب مارتنفيل . وفي ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) توفي مارتنفيل في البصرة ودفن فيها (٥٢) .

ويعتقد إن انشغال الفرنسيين في حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ – ١٧٤٨) واندلاع الحرب في الهند مع بريطانيا (٥٣) ، قد أدى إلى عدم الاهتمام بقنصلية البصرة. والدليل على ذلك إن غوس (Gosse) ، خليفة مارتنفيل ، طلب بإلحاح عدة مرات من مقر الشركة والسفير الفرنسي في اسطنبول ، ومجلس الشركة في بوند شيري ، إرسال ترجمان للقنصلية ولكن لم يلب طلبه (٥٤) . وقد بدأ غوس يشتكي باستمرار من وضعه الصعب وقلة وصول السفن إلى ميناء البصرة ، وأكد لمجلس الشركة في باريس انه لا يستطيع إن يعيش براتبه القليل وحقوقه القنصلية ، وكتب يقول : " إن وكلائنا الذين يعيشون في الخارج ، حتى الذين يعملون في البلدان النائية ، لديهم الكثير من التسهيلات كالاتصالات التلغرافية والاعتمادات ، إما نحن فان أرباح عملنا لا تغطي مصاريف الراتب الشخصي وإيجارات الأبنية والهدايا التي ينبغي تقديمها للباشا واصدقائه " (٥٥) .

ولم تؤد المصالح التجارية لشركة الهند الشرقية الفرنسية في البصرة إلى بذل أي جهد من قبل غوس الذي استمر يعمل لوحده دون مستشار ولا ترجمان ، خاصة بعد قرار مجلس الشركة في بوند شيري عام ١٧٤٥ م عدم إرسال أية سفينة إلى الخليج العربي ، وبالتالي عدم وصول المساعدات إلى القنصل الفرنسي الذي اضطر إلى مغادرة البصرة في ١٥ تموز (يوليو) ١٧٤٥ م (٥٦) . وكان مجلس مدراء الشركة في باريس قد قرر في ١٨ مايس (مايو) ١٧٤٤ إغلاق قنصلية البصرة (٥٧) . ولم تسع السلطات الفرنسية إلى إرسال أي وكيل بدلاً عنه إلا عندما اشتد النزاع بينها وبين الإنجليز في الهند ، حيث قامت في السنة نفسها بتعيين بيترودي بيردريو (Petro de Perdrieu) كمقيم لها في البصرة ، من اجل مراقبة تحركات الإنجليز وإرسال الأخبار إلى فرنسا (٥٨) . ففي تموز (يوليو) ١٧٥٥ وصل بيردريو إلى البصرة ، وسمحت له السلطات العثمانية بإعادة فتح مقر القنصلية ورفع العلم الفرنسي عليه (٥٩) .

وعندما وصلت إلى الهند الإنباء الخاصة بإعادة فتح مقر القنصلية الفرنسية في البصرة ، شعر مسؤولو شركة الهند الشرقية الإنجليزية بالخطر لأن الحرب بين بريطانيا وفرنسا أصبحت وشيكة الوقوع ، ولذلك فقد ابلغ المقيم الإنجليزي في البصرة فوراً إن يتابع بدقة محاضر جلسات المقيم الفرنسي في البصرة والتحري عن اتصالاته ، طالما انه عين لمراقبة النشاطات الإنجليزية ، وان يبعث بملاحظاته باستمرار إلى الشركة ، وان يقوم بنقل المعلومات إلى أوربا (٦٠) .

وقد كانت علاقة المقيم الفرنسي وطيدة مع المقيم الإنجليزي ، إلا أن علاقتهما شابها الفتور كثيراً خلال حرب السنوات السبع (١٧٥٦–١٧٦٣) (٦١) .

إلا أن مجيء هذا القنصل لم يساعد على زيادة التجارة الفرنسية في البصرة ، لكنه مع ذلك لعب دوراً نشيطاً في حياة البصرة الاجتماعية (٦٢) . ففي عام ١٧٥٨ تمكن بيردريو من الحصول على فرمان من باشا بغداد ينص على الاعتراف بالممثل الفرنسي كرئيس للجالية الأوربية في البصرة . وقد احتج المقيم الإنجليزي على هذا الفرمان مما حدا بالباشا إلى سحبه فوراً (٦٣) .

وفي إثناء فترة الصراع البريطاني الفرنسي في الهند اكتسبت البصرة أهمية تفوق كونها واحدة من المراكز التجارية في المنطقة ، لأن نقل الرسائل بين الخليج العربي وحلب أصبح أحد الأعمال الأساسية للمقيم الفرنسي والبريطاني في البصرة (٦٤) . ومن المؤكد إن الفرنسيين كانوا يعترضون سبيل البريد الإنجليزي ، ولم يكن من الصعب على بيردريو إن يرشو حملة الرسائل من اجل تسليمه الرسائل الإنجليزية أو تمزيقها . وكان القنصل الإنجليزي يلجأ إلى الأسلوب نفسه مع البريد الفرنسي . وقد أبدى السفير الفرنسي في اسطنبول تذمره من تأخر وفقدان البريد الفرنسي من والى الهند (٦٥) .

وقد حاول بيردريو إحياء التجارة الفرنسية في البصرة وكتب يوجه أنظار حكومته إلى أهمية التجارة الإنجليزية وحثها على مسايرة بريطانيا في هذا الميدان " ترسل حكومة الهند في كل سنة إلى البصرة خمس أو ست سفن محملة بالمنسوجات الصوفية والقطنية والسكر والتوابل حيث توزع بعد ذلك في بغداد وفارس والبلاد الأخرى المحيطة بالخليج (٦٦) . وبالإضافة إلى بيردريو فقد لعب بيرول (Pyrrault) وكيل شركة الهند الشرقية الفرنسية في البصرة دوراً مماثلاً وذلك حينما أوضح لمجلس مدراء الشركة في بوند شيري أهمية البصرة لما لها من دوراً أساس في تجارة الخليج العربي بوصفها مركز للاستهلاك والتوزيع والتجميع ، إضافة إلى أنها مصدر مهم بتزويد السفن القادمة من ايل دي فرانس وبوربون بالحبوب والتمور والمواشي . وأكد على ضرورة زيادة السفن الفرنسية المتوجهة إلى البصرة ، وإرسال المساعدات إلى وكلاء الشركة فيها حتى يتمكنوا من مواجهة وكلاء شركة الهند الشرقية الإنجليزية الذين يعملون على مراقبة نشاطات وكلاء شركة الهند الشرقية الفرنسية في البصرة (٦٧) .

لقد ظل الإنجليز يسعون دائماً إلى القضاء على النفوذ السياسي والتجاري الفرنسي في البصرة . ففي عام ١٧٦٥ طلبت شركة الهند الشرقية الإنجليزية من كاردن (R. . Gorden) المقيم الإنجليزي في بغداد ، إن يقنع باشا بغداد بمنع مرور التجارة الفرنسية عبر الصحراء من سوريا إلى بغداد ومنها إلى البصرة ، خصوصاً فيما يتعلق بالمنسوجات الصوفية التي كانوا يتاجرون بها على نطاق واسع (٦٨) .

إن أهمية البصرة في نظر بيردريو استمرت حتى بعد نقله كقنصل في حلب وكان ذلك واضحاً من التقرير الذي كتبه إلى حكومته في ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٦٧ يقول " يأمل باشا بغداد أن يرى انتعاش التجارة الفرنسية في البصرة وبغداد " (٦٩) . كما أكد الدوق دي برسلان (de Presllin) وزير البحرية الفرنسي ، على ضرورة إرسال بيردريو إلى البصرة بدرجة قنصل مع مساعدة مالية قدرها (٧٠٠٠) روبية على الأقل دون احتساب النفقات الثانوية ، وذلك من اجل ضمان الاتصالات بين الهند واسطنبول ، وطالب بإنشاء وكالة تجارية في مسقط وتعيين قنصل أو نائب قنصل في بغداد ، خاصة أن أسقف بغداد غير قادر تماماً على القيام بوظيفة القنصل (٧٠) .

ولما كانت البصرة هي المركز الرئيسي الذي ترسل منه الأخبار الخاصة بالهند إلى اسطنبول وباريس وبالعكس ، فقد طالب بيردريو شركة الهند الشرقية الفرنسية بضرورة الاهتمام بشكل اكبر في البصرة (٧١) ، خاصة بعد أن نقلت شركة الهند الشرقية الإنجليزية وكالتها التجارية الرئيسية في الخليج العربي من بندر عباس إلى البصرة ، والتي اعترف بها الباب العالي على إنها قنصلية مشمولة بنظام الامتيازات (٧٢) .

ومع أن الحكومة الفرنسية لم تكن متحمسة لهذه الأفكار ، لكنها قامت بتعيين جان بابتست روسو (J .B. Rousseau) كقنصل في البصرة عام ١٧٨٠ م (٧٣) . وقد حاول روسو تطوير التجارة الفرنسية وزيادة التأثير الفرنسي في العراق ، حيث بدأت المنسوجات الفرنسية تنافس مثيلاتها الإنجليزية في البصرة وفارس بسبب رخص ثمنها .

كما لعب روسو دوراً نشيطاً في حياة البصرة وتمتع بمكانة مرموقة لدى متسلم البصرة وباشا بغداد . ولكن على الرغم من جهود روسو ومحاولاته إقناع الحكومة الفرنسية الدخول في منافسة عملية ضد الإنجليز في البصرة ، وإرسال الهدايا والمساعدات إلى كبار الشخصيات في البصرة وبغداد ، فان الحكومة الفرنسية لم تحرك ساكناً ولم تبادر إلى اتخاذ أجراء حاسم حتى قيام الثورة الفرنسية (٧٤) .

ويلاحظ الباحث من خلال دراسته للوثائق الفرنسية إن الهدف الرئيس من إقامة القناصل الفرنسيين في البصرة هو العمل على تطوير التجارة الفرنسية وحماية البعثات الدينية وزيادة نفوذ فرنسا السياسي والثقافي ومراقبة النشاطات السياسية والتجارية والملاحية البريطانية في العراق ومناطق الخليج العربي الأخرى . وعلى الرغم من قدم علاقات فرنسا بالعراق وجهود بعض القناصل الفرنسيين بتطوير النفوذ الفرنسي في هذا البلد ، إلا إن النشاط السياسي والتجاري الفرنسي ظل منقطعاً ومحدوداً وغير مؤثر حتى نشوب الحرب العالمية الأولى .

المختصرات المستخدمة في الدراسة

*Archives Nationales,Affaires Etramgeres,Correspondance Consulaire et Commerciale .

الأرشيف الوطني في باريس ، شؤون خارجية ، مراسلات قنصلية وتجارية

*Archives du Ministre des Affaires Etramgeres, Memoires et documents .

أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية في باريس ، مذكرات ووثائق .

مصادر و مراجع البحث

١. ج. ج لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج١ ، مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر ، بدون تاريخ ، ص٦٦ .

٢. الكسندر اداموف ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ترجمة عن اللغة الروسية الدكتور صالح التكريتي ، البصرة ، ١٩٨٩ ، ص ٧٦ .

٣. عبد الامير محمد امين، المصالح البريطانية في الخليج العربي١٧٤٧-١٧٧٨بغداد، ١٩٧٧ ص ١٩

4. Zeki salh 'Mesopotamia (Iraq) 1600-1914 'A study in British Foreigh ' Baghdad '1957'P.42 .

٥. د. صالح محمد العابد ، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ، ١٨١٠-١٧٩٨ ، بغداد ، ١٩٧٩، ص ٤٥ .

٦. هيفاء عبد العزيز الربيعي ، غزة في الخايج العربي ، الغزو الهولندي للخليج العربي و المقاومة العربية له ، دراسة تاريخية ، بغداد ، ١٩٨٩ ، ص٦٥-٦٦ .

٧. في عام ١٥٣٥ م وقعت اتفاقية سلام وتحالف بين السلطان سليمان القانوني وفرنسوا الاول ملك فرنسا ، حصلت فرنسا بموجبها على امتيازات واسعة كان من بينها السماح للفرنسيين بالتجارة مع جميع الموانئ العثمانية ، وكذلك السماح للبعثات التبشرية الفرنسية ورجال الدين المسيحين بحرية التنقل في الأراضي العثمانية وممارسة طقوسهم الدينية . وفي عام ١٦٠٤ م عقدت معاهدة أخرى بين الدولتين أعطت لفرنسا أفضلية على بقية الدول الاوربية في الشرق . ولذلك فمنذ بداية القرن السابع عشر أخذت المصالح الفرنسية تنمو في ولايات الدولة العثمانية .

للتفصيل عنها راجع :

De Hammer Me`oir' sur les premieres relations diplomatianes eutre la France et la porte' Jaurnal Asiatiaue 'Tomx' paris'1827 'p.19-45 ; zeller 'G'ume le`gende qui a` la vie dure : les capitulations de 1535 'Revue d`histoire moderne ' tomell 'Paris '1955 'PP. 127-132 .

8. P.della valle , The Travels of Pietro della valle in the East and the Arabian desert , London , 1665 , p . 247

٩. A . Carre ' The Travel of Abbe Carre in India and the ear East from 1627 to 1674, vol . 1 , London , 1974 , p .8

١٠ - لوريمر ، المصدر السابق ، ص ١١٩ .

١١. Arch ' Nat ' Af f' 'Etr 'Corr' Cons et Comm' Bagdad B1 'No:176 'PP'186-187

١٢. E.Audle 'Son chemin de fer ' son Importance ' son Avenir ' Paris' 1917'P.58

ولد تافرنيه في باريس عام ١٦٠٥ وكان أبوه جبريل قد هاجر إليها من انتويرب مع عمه في نهاية القرن السادس عشر . وكان أبوه من مشاهير الجغرافيين والنقاشين . وقد قام تافرنيية برحلة إلى أوربا الغربية وخدم أهم حكام أوربا ودخل قصورهم وحارب الأتراك عندما وصلوا الى حدود بولندا . وقد زار تافرنيه اسطنبول وفلسطين وارضروم واريفان وفارس والعراق وحلب والاسكندرونة ومالطا وإيطاليا والهند . كما زار تافرنيه في رحلاته الست الواسعة النطاق ممالك آسيا الجنوبية وجزر الهند الشرقية واليابان وجنوب أفريقيا . وفي عام ١٦٦٩م منحه لويس الرابع عشر لقب نبيل . وقد قضى تافرنيه في رحلاته العديدة زهاء ست واربعين عاماً .

جان بابتست تافرنيه ، العراق في القرن السابع عشر ، ترجمة عن الفرنسية بشير فرانسيس وكوركيس عواد ، بغداد ، ١٩٤٤ م ، ص ١-١٢

١٣. المصدر نفسه ، ص ٣٢-٣٣ .

١٤. المصدر نفسه ، ص ٩٧-٩٨ .

15. 15-R.P phillipe ' voyage d`orieut 'Lyon '1652 PP.47-48

١٦. د. فلاح حسن عبد الحسين ، مدينة البصرة كما وصفها الرحالة الاوربيون في العصر الحديث ، موسوعة البصرة ، ١٩٨٩ ، ص٣٣٤-٣٣٥ .

١٧. كارستن نيبور ، مشاهدات نيبور في رحلة من البصرة إلى الحلة عام ١٧٦٥ م ، ترجمة سعاد هادي العمري ، بغداد ، ١٩٤٥ ، ص ١٠ .

١٨. ابراهيم محمد ساجت الزبيدي ، طريق القرات الصحراوي (بصرة – حلب) في العصر الحديث ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ١٩٩٠ ، ص ٣٣٨ .

١٩. فلاح حسن عبد الحسين ، المصدر السابعة ، ص ٣٣٨ .

20. Carre ' op'cit'vol '2 'P.8

٢١. تاسست أول شركة فرنسية للتجارة مع الهند عام ١٦٠٤ م لكنها ولدت ضعيفة بسبب النزاع بين مؤسسيها وقلة رأسمالها . وفي عام ١٦١١ م تاسست شركة فرنسية أخرى لكنها واجهت المصاعب نفسها التي واجهت الشركة الأولى . وفي ٢٨ مايس ١٦٦٤ م وبفضل جهود الوزير الفرنسي كولبير (Colbert) تاسست شركة فرنسية باسم (شركة الهند الشرقية الفرنسية) التي حصلت على امتياز كامل لمدة خمسين سنة للمتاجرة مع المناطق الممتدة من رأس الرجاء الصالح إلى الهند والبحار الشرقية .

للاطلاع على التفاصيل الكاملة الخاصة بتاسيس الشركات الفرنسية راجع :

22. P.Bonnaissieux'les ' Graads Compagnies de commerce ' paris '1892

P. Kaeppelin 'Les Origines de I`Inde Framcais 'La Compdes Indes et Framcois Martin paris ' 1908 'PP.85-59

23. R. Vadala' Le Golfe Persique ' 1920 'P.62 .

٢٤. ستيفن هملي لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط 'بغداد ١٩٦٨ ، ص ٣.

25. Arch. AFF. Etr .Me`m. etdoc . Turquie ' vol .111' Jesu a`de Nointel ' Jan ' 1679

26. Ibid' de Nointel a` Jeswuse 'sept.1682 .

27. Ibid' Jesusea` de Nointel ' 12 Aout 1682 .

٢٨. د. محمد عبد الله العزاوي ، البصرة التجاري في الخليج العربي ، موسوعة البصرة التاريخية ، البصرة ١٩٨٩ ، ص ٢٩٨ .

٢٩. د . محمد عبد الله العزاوي ، التنافس التجاري الفرنسي البريطاني في الخليج العربي ١٧٩٣-١٨٦٢ ، رسالة دكتوراه دولة باللغة الفرنسية غير منشورة ، ج٢ ،فرنسا (اكس بروفانس) ١٩٨٥ ،ص١٠٢ .

30. Arch . Nat.Aff.Etr . corr.cons.et comm. Pondichery

volo 1,pp.262-263,delibeation du conseil superieur de pondichery.

31. Ibid
32. Ibid'vol.13 'LeConseil Supe`riur de pondiiche`ry a` la comagnie '2 mars 1734 .
33. Ibid 'de villeneuve au oe`re Anyoine de Saiut-denis '9Juil '1734 .
34. La Compagine '7 Jan '1735 Ibid' le Conseil supe`rieur de pondiche`ry a`
35. Ibid 'Le Compagine an Conseil supe`rieur de poniche`ry '26 Nov 1736
36. Ibid ,Le compagnie an conseil superieur de pondichery,26 Nov 1736
37. Ibid
38. Ibid,Le conseil superieur de pondichery a la compagnie ,6oct.1738
39. Ibid ' Juin 1739.
40. Ibid,Martinville au conseil des directeurs, 29Juin 1739 .
41. Ibid' 20 Aout 1739.
42. Ibid,23oct . 1739.
43. Ibid.

٤٤. د٠ صادق ياسين الحلو ، البصرة في الوثائق الوطنية ووثائق وزارة الخارجية الفرنسية في القرنين الثمن عشر والتاسع عشر ، مجلة الخليج العربي ، البصرة ،١٩٨٨ ، ص ١٠١٠

٤٥. أمين ، المصدر السابق ، ص ٤٠-٤١٠

46. Arch .Nat.Aff.Etr. Corr. Cons .et Comm.' Pondiche`ry vol.13'Martinville an conseilo superieur de pondiche`ry ' 1Nov.1739
47. Ibid'9Dec 1739.
48. Ibid ' 13Mar5 '1740.
49. Ibid 'Conseil super`iur de pondiche`ry au conseil des dircteurs '12Juin 50-1742 .
50. Ibid ' Martinville au conseil des diresteurs '6 spet.1741
51. Ibid.
52. Ibid' Goss au conseil supe`rieur de pondiche`ry' 12 Mov'1741.
53. P.Masson ,Histoire du commerce Framcais dans le Levant an Xvlll siecle , paris , 1911 pp. 432- 433

54. Arch.Nat .Aff.Ete .Corr.Cons. et comm' pondiche`ry'vol.13 'Goss an conseil supe`rienr de pondichery , 12 Juil . 1743 .
55. Ibid
56. Arch .Nat. Aff.Etr.Corr.Cons.et Comm'Bassore' B1 '197' Compte Rendu sur le -٥٦ Commeree de Bassor .
57. Ibid ' Conseil des directeurs au Conseil de pondiche`ry' 18 'Mai' 1744
58. Ibid ' Instructions a` perdrieu par le Conseil de ondiche`ry .

٥٩. امين ، المصدر السابق ، ص ٩٣

٦٠. المصدر نفسه ، ص ٩٩

٦١. العابد ، المصدر السابق ، ص٥٧

٦٢. أمين المصدر السابق ، ص ٩٣

٦٣. المصدر نفسه .

٦٤. المصدر نفسه ، ص ٩٦-١١٤

٦٥. العزاوي ، التنافس الفرنسي البريطاني في الخليج العربي ، ج١ ، ص١٠٦-١٠٧ .

٦٦. د. صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ج١، ص ١٠٨ .

67. Arch .Nat .Aff.Etr .Corr Cons et Comm' Bassora ' B1'197' pyrault au Perderieu de-٦٧ La compagnie des Indes , 30 Juil .1769

٦٨. أمين ، المصدر نفسه ، ص١٣٤-١٣٩ .

69. Masson, op. cit .,pp.543-545

٧٠. العزاوي ، التنافس الفرنسي البريطاني في الخليج العربي ، ج١ ، ص ١٠٨ .

71. Arch.Nat.Aff.Etr.corr.et comm, Bassora , B1 ,197, perderieu an president de La compagnie ,9 Fev.1774

٧٢. أمين ، المصدر السابق ، ص١٣٤-١٣٩

٧٣. د.محمد عبد الله العزاوي ، المصالح الفرنسية في الخليج العربي ، ١٨٤٤-١٨٩٠ رسالة ماجستير باللغة الفرنسية غير منشورة أكس بروفانس (فرنسا) ١٩٧٧، ص٩ .

٧٤. العزاوي ، التنافس الفرنسي البريطاني في الخليج العربي ، ص ١٠٩